أفاق فكرية
رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
البريد الالكتروني:
hany.ismail@art.bsu.edu.eg
ص . ص 141 - 168
الدوغمائية والتخييل السردي
رواية " مجنون الحكم " لسالم حميش نموذجًا

الدوغمائية والتخييل السردي
رواية "مجنون الحكم" لسالم حميش نموذجًا

هاني إسماعيل محمد إسماعيل أبو رطيبة

- **جامعة بني سويف - كلية الآداب - مصر -** hany.ismail@art.bsu.edu.eg

تاريخ الارسال :2019-01-22 **تاريخ القبول:**2019-07-14 **تاريخ القبول:** 2019-12-28

الملخص : عالجت الدراسة الفكر الدوغمائي المهيمن على العقلية العربية من خلال الرواية الجديدة، ممثلة في رواية " مجنون الحكم " لسالم حميش، وكشفت الدراسة عن دور التخييل الإخباري في إنتاج دلالات جديدة للنص الروائي، وأبرزت دور العتبات الاستهلالية، في إنتاج نص جديد، يوازي النص الأصلي. وأوضحت أن تلك الرواية ليس رواية تاريخية بالمفهوم التقليدي، إنما هي رواية تتحدث التاريخ المتعمق بمخيلتنا الثقافية، وكيف يشكِّل رؤيتنا المعاصرة، فالرواية – كما أوضحت الدراسة – تتحدث عن الشخصية المعاصرة، أكثر من حديثها عن الشخصية التاريخية، كما كشفت الدراسة عن دور الصراع النفسي الذي أصاب الحاكم في صغره، في توجيه سلوكياته، وتقلب مزاجه، وأكدت الدراسة تأثير النموذج التاريخي للحاكم بأمر الله في النظام السياسي للأمة العربية عبر تاريخها الطويل

الكلمات المفتاحية : الدوغمائي، الحاكم بأمر الله، التخييل، السرد، الروائي، النفسي

Dogmatism and narrative imagining
novel " crazy governance" to Salem Himmich model

Astract— The study addressed the dogmatic ideology dominant Arabic mentality through the new novel, represented in the novel " crazy governance" to Salem Himmich, revealed the role of imagining new semantics production news text novelist, and highlighted the role of opening thresholds, in the production of new text, corresponding to the original text. She explained that the novel is not historical fiction in the traditional sense, but rather a novel talking history-depth cultural imagination, how a contemporary vision, the novel – as I have explained the study – talks about more contemporary character talking about historical character, as revealed on the role Psychological conflict that plagues a young ruler, in directing his manners, volatile temperament, the study confirmed the influence of Governor's historical model is Allah in Arabic across the nation's political system of its long history.

Key words: Dogmatic, Ruling by God's command, Imagination, narration, novelist, psychologist

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 141 - 168
البريد الالكتروني:
hany.ismail@art.bsu.edu.eg

مقدمة:

هذه دراسة في الرواية التاريخية من منظور الفكر الدوغمائي، فهى تهتم بالفكر الدوغمائي في الرواية العربية، وكيف كانت الدوغمائية حاضرة بقوة في الفكر العربي القديم، فالدوغمائية التي تعني أحادية الفكر التي تمنع صاحبها من التفكير العميق، ومن تقبل الفكر المخالف له، أو بمعنى آخر " هي عدم قدرة الشخص على تغيير جهازه التفكيري، أو العقلي عندما تتطلب الشروط الموضوعية ذلك، وعدم القدرة على إعادة ترتيب أو تركيب حقل ما تتواجد فيه عدة حلول لمشكلة واحدة، وذلك بهدف حل المشكلة بفاعلية أكبر[1] .

فهذه الدراسة تهتم بالرؤية العقلية الدوغمائية في الرواية العربية التاريخية، - عبر صورة عقلية الحاكم بأمر الله الفاطمي- ، وكيف كانت هذه العقلية نموذجًا واضحًا في التاريخ العربي، استطاع أن يؤصل لها، ويمدها بالقوة والاستمرار، هذا الاستمرار الذي أعاق العقلية العربية في عصورها المتتالية عن الانفتاح وتقبل الآخر، والاندماج معه بهدف خلق رؤية حضارية جديدة، تسهم بأشكال مختلفة في التقدم والتخلي عن العقد الفكرية الموروثة.

كانت رواية " مجنون الحكم " لسالم حميش تناقش سيطرة الدوغمائية الفكرية على فكر الحاكم بأمر الله الفاطمي، الذي استطاع أن يفرض دوغمائيته على بلاطه ودولته، وأسس لهذا النموذج؛ ليكون مثالاً يحتذى به. ناقش سالم حميش في روايته مسببات اعتناق الحاكم بأمر له لهذا الفكر المنغلق شديد العقائدية المتطرف، الذي بناه على فكرة القداسة الأسرية ثم القداسة الشخصية، تلك القداسة التي انحرف بها حتى أعلن أنه الواحد الذي لا يرد له فكر أو منطق أو رأي أو قرار، فادعى الألوهية، بسبب اعتناقه للفكر الدوغمائي المنغلق، الذي بناه كما ذكرت على مجموعة من العقائد التي ترفض قبول أي عقيدة مخالفة له، وتطور هذا لديه حتى اعتقد أنه الوحيد الذي يملك الفعل.

رصدت الرواية هيمنة الرؤية الدوغمائية على عصر الحاكم بأمر الله بأكمله، حتى صارت معتقدًا أساسيًا لرجالات هذا العصر، فالثائر أبو ركوة، الذي خرج برجاله منتفضًا ضد دوغمائية الحاكم وظلمه وشططه وانحرافه، كان هو الآخر دوغمائيًا يؤمن بقداسة نفسه وفكره ومنطقه، ويساير الحاكم بأمر الله في كل معتقداته التي بنى عليها أحاديته الفكرية من الأصل المقدس، امتلاك

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 141 - 168
البريد الالكتروني:
hany.ismail@art.bsu.edu.eg

العلم في مجتمع جاهل، اطلاعه على الغيب أو معرفة المستقبل، وهذه الأفكار هي نفسها التي هيأت للحاكم الانغلاق والأحادية، لقد أوضحت الدراسة أن الرواية تشير إلى أن الفكر الذي اعتنقه الحاكم بأمر الله لم يكن خاصًا بالحاكم فقط، إنما كان سمة عصر علت فيه أصوات الصراع المذهبي والعرقي والفكري حتى بلغ مرحلة الشطط والجنوح، فأثمر تلك العقليات التي كان الحاكم بأمر الله أحدها ولم يكن الوحيد، إن الظروف التاريخية للمجتمع العربي هي التي خلقت مثل هذا النموذج العقائدي المتطرف، الذي مثله الحكام خير تمثيل، فالخطاب الروائي يكشف أن تلك المرحلة المضطربة الأحادية الرؤية هي التي أسهمت بشكل كبير في تشكيل العقلية العربية المستقبلية حتى عصرنا الحالي.

لم تكن رواية " مجنون الحكم " رواية تاريخية بالمفهوم التاريخي الصارم، تروى تاريخًا وتعبر عنه وتناقشه، بل كانت رواية تضرب في جذورها في الماضر وتستقر في الحاضر، لتعلن عن العلاقة الوطيدة بين الماضي والحاضر، فالرواية لا تناقش الهزيمة الفكرية التي منى به المجتمع العربي في عصر الحاكم بأمر الله ومسبباتها، بقدر ما تناقش كيف أثَّرت تلك الهزيمة الفكرية في حاضرنا، ومستقبلنا، فاعتنقنا الفكر الدوغمائي الذي أدى بدوره إلى خلق مجتمعات مفككة متناحرة، لا تؤمن بالآخر، بل تؤمن بذاتها فقط، وتبرر لنفسها القتل والحرق والتدمير، بدعاوى حماية فكرها ومجتمعها من الفكر المنحرف الذي تتبناه الدول أو المجتمعات المجاورة، التي هي بدورها تتبني نفس الفكر والرؤية الدوغمائية الأحادية، رغم أن تاريخهم ودينهم واحد، لكنَّ الانغلاق الفكري فرض منطقه عليهم.

أوضحت الدراسة التخييل الفني المعتمد على الأخبار التاريخية الموثقة التي استهل بها الروائي روايته، ومهَّد بها لكل فصل من فصولها؛ ليبني رؤيته الفنية والفكرية على أساس الخبر الموثق، راغبًا في التأكيد على تضافر الحاضر مع الماضي مع المستقبل، فالأخبار التاريخية منحت النص قدرة خطابية دقيقة، كشفت عن المعضلة الحضارية التي نعاني منها، وأكدت أننا مازلنا نعيش أسر هذا الماضي المقدس، الذي عدَّ البعض خرقه أو محاولة تجديده وتطويره عملًا لا إنسانيًا يعكس رفض الدين الإسلامي برمته، وهذا ما أسهم في كشف النسق الثقافي المضمر القائم على العدوانية الشديدة في المخيلة العربية، وهذا النسق المضمر هو الذي حدا بالبعض إلى اعتناق مثل هذه الأفكار المتشددة المبنية على قداسة التاريخ الدوغمائي الأحادي.

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 141 - 168
البريد الالكتروني:
hany.ismail@art.bsu.edu.eg

وقد اعتمدت الدراسة المنهج التحليلي الذي اقتضى تحليل الخطابات المتعددة داخل النص، الروائي ومحاولة الكشف عن الأنساق الثقافية المعلنة والمضمرة، والدوغمائية العقائدية المتغلغلة داخل المخيلة الثقافية العربية. وقد قُسِّمت الدراسة إلى المباحث التالية:

المبحث الأول: الاستهلال والتخييل بالأخبار

المبحث الثاني: الدوغمائية والبناء النفسي للحاكم بأمر الله

المبحث الثالث: الدوغمائية وصناعة القداسة

المبحث الرابع: الدوغمائية " أحادية الفكر" ورفض الآخر

المبحث الخامس: تمثيلات اللون الأسود والرؤية الدوغمائية

المبحث السادس: الثورة والدوغمائية البديلة

والخاتمة جاءت لتبرز دور الرواية الجديدة في مناقشة القضايا الفلسفية والفكرية للمجتمعات العربية، وتعبر عن الرواية التاريخية بشكلها ورؤيتها الجديدة.

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 141 - 168
البريد الالكتروني:
hany.ismail@art.bsu.edu.eg

اولا / الاستهلال والتخييل بالأخبار:

يلعب الاستهلال دورًا مهمًا في القص الروائي، فهو يعد مقدمة مهمة تكشف عن رؤية النص، فالاستهلال يجذب انتباه القارئ أو السامع أو المشاهد وشده إلى الموضوع، فبضياع انتباهه تضيع الكلمة فالاستهلال فن البدايات في النص [(2)]، فهو الذى يمنح القارئ فرصة التفاعل النصي وإنتاج دلالات نفسية وفكرية تقوده لصناعة أفق التوقع، القائمة على التعالق الوجداني والنفسي بين النص والمتلقي، الذى يدفعه تراكمه الثقافي للتفاعل معه. فالاستهلال يحمل رؤية النص، وأيديولوجيته التي يسعى إلى تعميقها، " ويرتبط الاستهلال ارتباطًا وثيقًا بمكونات البينة السردية الأخرى للقصة وخاصة عناصر الزمان والمكان ورؤية العالم، ولهذا فإن كانت بنية النص مكانية رأيت تفوق الزمان على المكان في الاستهلال، وإذا كانت زمانية رأيت تفوق الزمان على المكان فيه، توافقًا مع استراتيجية النص وموضوع الراوي والمروى له [(3)] يستهل النص الروائي لسالم بن حميش خطابه بتضافر مجموعة من التعالقات النصية الجديرة بالوقوف أمامها، فهو يستبصر الزمان والمكان عبر التخييل بالأخبار التاريخية الموثقة، فهو لا يحيلها للتاريخ إنما يحيل النص التاريخي إلى الرواية؛ ليربط بينهما ربطًا يعبر عن رؤيته في التعبير عن الواقع (الزمان والمكان) عبر الخبر التاريخي الذى يتضافر مع رؤية النص الروائي وخطابه، ويتعانق مع فكر المتلقي فينتج دلالات جديدة للتاريخ "عبر الخبر" وللنص الروائي، تسهم في إثراء الحدث الروائي الذى كلما تقدم للأمام عاد بنا إلى الخبر التاريخي الموثق في بداية كل فصل روائي. يقدِّم الاستهلال مفاتيحه القرائية لهذا الكتاب / الرواية، وإن كانت هذه المفاتيح مضنون بها، كونها، أمام عمل أدبي، غير أنها تجعل بيننا، وبين الكاتب ميثاقًا، نتوافق به قرائيًا[(4)].

"كان الحاكم بأمر الله سيء الاعتقاد كثير التنقل من حال إلى حال...وكان مؤاخذ يسير الذنب، حادا، لا يملك نفسه عند الغضب، فأفنى أممًا وأجيالًا وأقام هيبة عظيمة وناموسا، الوزير جمال الدين، أخبار الدولة المنقطعة"[(5)].

إن الاستهلال الخبري في الرواية وفى بداية سردها يأخذ القارئ حيث الحدث التاريخي ويحدث تعالقًا فكريًا بينهما، يستحضر معه القارئ كل صور التاريخ التي عرفها عن الحاكم بأمر

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 141 - 168
البريد الالكتروني:
hany.ismail@art.bsu.edu.eg

الله، وعن بقية الطغاة، قبل أن يلج به الخطاب الروائي إلى جو الرواية الذى يؤرخ للحاضر بالخبر التاريخي. ويعتمد الخطاب الروائي توثيق الخبر الذى يصنع قراءة تفاعلية بين ثلاثية الخطاب التخييلي الذى قصده المؤلف (التاريخ –الرواية- الخبر) وكي يمكِّن القارئ العودة للنصوص التاريخية التي قد تمده بأخبار تساعده في تلقٍ مختلف للنص الروائي وخطابه.

إن النص المؤسس لا ينبع من الداخل إنما ينبع من الخارج حيث الخبر التاريخي الذى يمهد للقراءة، أو لتقل يصفها بطريقة مغايرة فالتناص التاريخي هنا ليس استدعاء مجردًا يغوص داخل النص بعضنا يلحظه والبعض الآخر لا يلحظه، ويعده حدثًا روائيًا لا يرتبط بالتاريخ، بل هو تاريخ يتناص مع النص الروائي ويخلقه، فالتاريخ حاضر بدقته وجفافه وعلميته في مطلع النص؛ ليؤدي دوره الوظيفي في التفاعل النصي، الذى يبدو أدبًا تفاعليًا لا يستطيع من خلاله أن يعد أحدهما مؤسسا للأخر، فكلاهما مؤسس للخطاب وموجه له، وكأن الخطاب الروائي يخاطب كافة أدوات المتلقين، من أصحاب التراكم التاريخي أو الثقافي أو السياسي، أو ذلك القارئ الذى يغامر لأول مرة بتجربة القراءة الروائية. لقد أسس الاستهلال الروائي بالأخبار الموثقة لصورة بطل الرواية /الحاكم بأمر الله الدموية، التي تجمع بين تناقضات الذات النفسية المريضة، فهو رغم دمويته يبدو تواقًا للتسامح والسلم، ومع شجاعته وافتراسه، يتراجع ويميل للجبن والتخاذل، ومع ولعه بالعلم والعلماء، تجده يطاردهم ويقتلهم في كل مكان. "وكانت خلافته (مستمدة) من شجاعة وإقدام، وجبن وإحجام، ومحبة للعلم وانتقام من العلماء، وميل إلى الصلاح وقتل الصلحاء وكان الغالب عليه السخاء وربما بخل بما لم يبخل به أحد قط، (سبط ابن الجوزي مرآة الزمان(6). إن تلك الشخصية المتناقضة، غريبة الأطوار، استطاعت أن تُخضع مصر والشام لسلطانه، وتستمر قرابة الربع قرن، ويبدو هذا تناقضًا عجيبًا، كيف لرجل بتلك الصفات الأقرب للجنون أن يستطيع أن يسود دولة كبرى، مترامية الأطراف دون أية منازعة من داخل أسرته أو من قواده، وكيف ينصاع له الجميع. إن الاستهلال الخبري يدفع المتلقي إلى تلك التساؤلات التي تدخله في تفاعل مع الخبر والخطاب الروائي ورؤيته الخاصة وتحطم عبر كل خبر متعالق مع النص أفق توقعه، فيستمر في عملية القراءة محملا بتساؤلات أكثر بنى بها الخطاب رؤيته وتقاربه مع النص تعالقًا أو قراءة.

"وكانت سيرته من أعجب السير. وخطب له على منابر مصر والشام وإفريقية والحجاز. وكان يشتغل بعلوم الأوائل وينظر في النجوم، وعمل رصدًا، واتخذ بيتًا في المقطم ينقطع فيه عن الناس

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 141 - 168
البريد الالكتروني:
hany.ismail@art.bsu.edu.eg

لذلك، ويقال أنه كان يعتريه جفاف في دماغه، ولذلك كثر تناقضه، وما أحسن ما قال عنه بعضهم: كانت أفعاله لا تعلل وأحلامه ووساوسه لا تؤول" المقريزى الخطط[7].

والاستهلال " مؤشر لفهم السياق الذي ينخرط فيه الكتاب / - الرواية _ ولا يمكن للقارئ فهمه بدونه، فهو يضعه في حالة انتظار؛ لأن الكتاب – الرواية – يعد جزءًا من مجموعة كتب لابد أن تفهم في سياقها العام[8].

إن سالم حميش باستهلاله الإخباري أو بتخييله الإخباري الاستهلالي، يشرك قارئه في عملية التخييل، وصناعة الخطاب عبر التساؤلات المتتابعة، فهل نحن أمام شخصية واحدة؟ أم مجموعة من الشخصيات المختلفة؟ يستحيل أن يكون الحاكم بأمر الله شخصًا واحدًا عاقلا أو غير عاقل عبقريًا أو غبيًا، صالحًا أم فاسدًا، إنما أمام مجموعة من الرجال كل واحد منهم يختلف عن الآخر اختلافًا كبيرًا، فالحاكم ليس شخصًا واحدًا أو حاكمًا واحدًا، إنما هو عدة نماذج من الحكام ، تجمعهم الدوغمائية الفكرية والدينية، ويفترقون في صفاتهم الأخرى، لذلك فالخطاب الروائي يعرفه تعريفًا يعبر عن التوجه الأيديولوجي للقص، أو بعبارة أخرى يعبر عن تأكيد الخطاب انتشار هذه الشخصية المستبدة الدوغمائية في كل البلدان العربية، فلا تنفرد به دولة دون أخرى، فالنص يظهر الزمان والمكان والتاريخ مع الحاضر، ويجمع البلدان جميعا في مكان واحد هو بلد المستبد الحاكم بأمر الله "هو! العبيدي الفاطمي، المغربي الأصل، المصري المولد والدار والمنشأ [9] فهو عربي شريف، فاطمي، فارسي الثقافة، مغربي الأصل، مصري المنشأ، جمع كل الثقافات والأفكار والأوطان، فهو شخصية متنافرة الصفات؛ لتعبر عن الأمة العربية المتناحرة.

ثانيا / الدوغمائية والبناء النفسي للحاكم بأمر الله:

كشف النص الروائي عن شخصية الحاكم بأمر الله ونفسيته المتزعزعة الحادة، التي تبدو متناقضة فهى تجمع حينًا بين الانغلاق والتشدد والانفتاح واليسر، فهذه العقلية "ترتكز على ثنائية ضدية حادة هي نظام من الايمان أو العقائد / ونظام من اللا إيمان واللا عقائد. بكلمة أخرى أكثر وضوحًا فإن العقلية الدوغمائية –للحاكم بأمر الله- ترتبط بشدة وبصرامة بمجموعة من المبادئ العقائدية وترفض بنفس الشدة والصرامة مجموعة أخرى وتعتبرها لاغية لا معنى لها[10].

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 141 - 168
البريد الالكتروني:
hany.ismail@art.bsu.edu.eg

لكن ما الذي جعل من شخصية الحاكم بأمر الله شخصية حادة دوغمائية، تتميز بالاضطراب النفسي، الذى أسهم بدرجة كبيرة في السلوكيات المنحرفة، التي كشفت عنها الرواية. " انطلق روكيش ROKEACH في وصف الشخص المتشدد في الرأي " الدوجماتي " بأنه تعرض لعمليات نفسية سببها مصادر المعرفة والثقافة، وأصبح يحمل أفكارًا وتصورات دوجماتية وعدوانية، استقرت في بنائه النفسي والمعرفي، وأصبحت تشكِّل دافعية تملي عليه سلوكه وتميزه عن الشخصية السوية[11].

إذا أردنا فهم عقلية الحاكم ونفسيته المضطربة لابد أن نعود إلى الاستهلال الروائي الخبري، الذي **ابتدأ** به للنص، **ليحدث** كما ذكرنا تعالقًا نصيًا خبريًا إنسانيًا يخلق أبعادًا جديدة للروايةورؤيتها.

إن الخطاب الروائي لسالم حميش يحاول أن يجيب عن أسباب الاضطراب النفسي والفكري، الذي ظهر به الحاكم بأمر الله، فالخطاب يوضح لنا على لسان الحاكم أنه كان صبيًا يلهو مثل بقية أقرانه من الأطفال حتى جاءته الخلافة؛ فأهدرت طفولته؛ لذلك فهو يرغب في عمر جديد " آه كم هي عارمة رغبتي في عمر آخر، لا لكي أحكم، بل لكي أكتب، وهل تدري يا حميد الدين ما أريد أن أسوِّد به الأوراق، على مالم يدركه هذا المؤرخ، ولم يره وكل ما غاب عن أسفاره الثقيلة من صيحات كامنة وصدوع وحقائق[12].

رغب الحاكم في الحياة من جديد؛ لإعادة كتابة التاريخ الذى يجهله الجميع عنه، فهم يكتبون ما يرون، لكنهم لا يعرفون الأسباب الحقيقية لما يحدث من أفعال تبدو غريبة شاذة ، يكشفها لنا الخطاب برمزية إخبارية عن التحول الخطير في حياة الحاكم بأمر الله، وكيف كان هذا التحول هو النواة الأولى في دوغمائيته واستبداده "فعد مثلا إلى صباي لترى معي ما أراه : في بساتين اللؤلؤ سنديانة خالدة شامخة يقال إنها فرعونية المنبت والمرجع، كنت وأنا دون العاشرة ، أعتليها كل صباح وأقضى ساعات أطلي غصونها الفارعة بالدبق المبثوت بحبات الزرع[13].

كان طفلا لاهيًا محبًا للطبيعة، للعبث واللهو كعادة الأطفال في مثل سنه، تواقًا لتحقيق العدل حتى في لهوه" كانت قطط القصر لا تتأخر عن اجتماعها (من تحتي لولائم تأتيها من عندي ، وكثيرًا ما كنت أقتل القط المغالي في الأكل والسطو"[14].

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 141 - 168
البريد الالكتروني:
hany.ismail@art.bsu.edu.eg

يكشف الخطاب الروائي عن طبيعة الصبي ابن العاشرة المحب للانعزال واللهو المنفرد مع الحيوانات المختلفة التي كان يمارس عليها سطوته وقسوته إذا لزم الأمر، لكن قسوته معها كانت من وجهة نظره مبررة، "المغالي في الأكل والسطو" فهو لا يقسو على قط إلا إذا غالى وسطا على حقوق الآخرين. في ظل هذه الحالة اللاهية جاءه خبر وفاة والده؛ وتنصيبه خليفة فاطميًا؛ ليتعرض للعزلة الإجبارية فيما بعد "وبقيت على عادتي هاته زمنًا إلى أن أتاني ذات يوم بورجوان ، فأنزلني من السنديانة وأخبرني بموت أبى [15] تعرض الصبى لأول حالة وجع حقيقي وانكسار نفسى كبير بوفاة والده، والده الخليفة الذى منحه الأمان والقوة، وضمن له الحياة الطفولية اللاهية، وبمجرد وفاته تغير كل شيء "وأنا أخضع لمراسيم التنصيب أودع الطيور والحيوانات، وأتنازل حزينًا مكرها عن عرشي في مملكتها"[16] فقد الصبى مملكته ولهوه وأصابه الحزن والانكسار بفقد الاب/ الخليفة، وهجرته لمملكة الطفولة لذلك فهو يقر أن تلك الحادثة كانت هي محور التغيير الحادث له، وبداية الانحراف النفسي والإنساني "هذه الذكرى التي لم يأت مؤرخى إلا بقشورها، أرغب في الانكباب عليها كتابة لأنها فاتحة ما تعاقب عليَّ من أحلام مزعجة وهواجس مرعبة سعيت بها بين العباد أرفعها عنهم عند الفرح والغبطة وأحققها فيهم عند الشدة والظلمة[17].

ساء المزاج النفسي للصبى الحاكم عندما غادر مملكته، وغادره أبوه وتركه تحت الوصاية التي آذته نفسيًا، وخلقت منه ذلك المستبد الدوغمائى.

أحاطت حالة تربص بالصبي الحاكم من قبل الأوصياء عليه، لذلك صدم نفسيًا فعانى رحيل الطفولة أو تهديد حياته وحبسه، كل تلك المخاوف التي تعمَّقت داخل آل الخليفة المتوفى خاصة ابنه وخليفته، دفعته إلى اعتناق الفكر الأوحد، لقد حرمه الخوف والانعزال والقهر من التفكير، والتزم منطقًا واحدًا، هو المنطق الذي ضمن له استمراره في الحكم.

"ألأن ربى أتأنى الحكم صبيًا تتربصون بى"[18] يعكس خطاب الحاكم حالته النفسية القلقة، وتماهيه مع الأنبياء المضطهدين، خلق بداخله دوغمائية الفكر، وقدسية الذات جمع بينهما جمعًا قويًا متداخلا، هيأه للقسوة والخلاص من كل الذين تربصوا به أو ظن أنهم يتربصون به. إنه يربط بين مشهد القطة المتسلطة المتربصة وتدخله لتحقيق العدالة وبين حالته وتربص كل من في القصر بالخليفة الطفل.

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 141 - 168
البريد الالكتروني:
hany.ismail@art.bsu.edu.eg

" لا لن أترك مخرجًا للخصي بورجوان الصقلبي، مدبر دولتي، ولن يفعل بي ما فعله كافور بأولاد سيده الأخشيد[19] إن صور التاريخ المشابه لحالته حاضرة في مخيلته، ومخيلة أسرته ، لذلك انطبعت داخله، وصارت جزءًا من المكون الثقافي للدول، خاصة وأن تلك الحادثة لم تكن بعيدة زمانًا أو مكانًا، فالفاطميون هم الذين ورثوا الدولة الإخشيدية، وكانوا على علم تام بما جرى فيها، لذلك فكل مسببات القلق والاضطراب والخوف النفسي موجودة؛ ولأنها كانت قوية، فلقد أورثت الحاكم مرض الوسواس القهري، الذي أسهم في تبنيه للفكر الأحادي المنغلق الدوغمائي " فقولوا له وقد قابل وجهي بنتانة نعله، وطغى علي واستغنى[20] يصف السرد الروائي كيف كان الحاكم يرى صورة الأوصياء على حكمه، وكيف أنهم طغوا عليه، واستبدوا به، كما كانت تتسيد القطط على بعضها؛ لتسطو على طعام ليس من حقها، لذلك يوجه حديثه لهم " إن من تسميه بالوزغة المحجورة، قد أضحى تنينًا، والتنين صار يتلوى على الأعناق الزائغة ويمنع عنها الهواء منعًا[21]، يربط الخطاب بين صورة الطفل اللاهي بين القطط والصبي الذي بدأ يستأسد على الجميع بعد ان استخفوا به ومارسوا شذوذ ظلمهم له؛ فصار ابنًا للنسق السياسي السائد، للظروف المحيطة، التي خلّفت بداخله الآثار النفسية المضطربة، التي أنتجت ممارساته وأكَّدت دوغمائيته المنحرفة " وسأكون بالبطش به وبكل الراغبين في دمي وافر القدر سريع الانتقام[22] عبر الخطاب السردي يعلن الحاكم استراتيجيته في إدارة الدولة، كيف تصدى للأمور الجسام في دولته، وكيف سيواجه مستقبلًا كل نوازع النفس الساعية للنيل منه أو من سلطان أسرته " تشددت فاسترجعت عرشي، وسرت في أنفاق عهدي وفتنتي[23] الشدة والقسوة والفتنة هي أسلحة الحاكم بأمر الله في استعادة حكمه المسلوب من قبل أوصيائه، كان يخاف من مصير أبناء الإخشيد؛ فقرر إعمال السيف " وتاريخًا لسيوفي في موطني[24] حتى ترسخ حكمه وسلطانه.

هكذا تشكَّلت شخصيته في ظل ظروف القهر النفسي الذي مورس ضده؛ فخلق منه شخصية دموية، تدمن القتل والفتنة، وتصنع لنفسها القداسة التي ستكون سببًا في كل ما يفعل لاحقًا. قامت فلسفة الحاكم الدوغمائية على اعتناق عقيدة ثابتة لا تخضع للعقل، تبنت الهدم، هدم كل شيء يخيفه أو يقلقه، كي يعيد بناءه بنفسه، وفق مشيئته وإرادته، بما يخدم تثبيت سلطانه. " تسألونني عن الحكمة في إقبالي على الهدم والتقويض في ميدان المعمار والقيم، وجوابي إليكم خذوه وتدبروه: إن من لم يهدم لا يعرف معنى البناء، ومن لم يختبر الشر لا يقدر على فعل

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 141 - 168
البريد الالكتروني:
hany.ismail@art.bsu.edu.eg

الخير[25] أشار الحاكم إلى تجربته النفسية التي مرَّ بها في صباه، وكيف علَّمته أن يكون حاكمًا قويًا، يسترد عرشه مرة أخرى.

إن سعى برجوان وأبي عمار الكتامي للسلطة والاستبداد بالحكم، والخلافات التي نشبت بينهما حول السلطة، ترك أثرًا نفسيًا متسلطًا داخل الحاكم بأمر الله، وأسهم في اتباعه لاستراتيجيته القاضية بقتل المقربين له في الحكم؛ لأنهم طامعون فيه، ولو غفل عنهم قتلوه " القتل في المقربين أهل البطانة أولى وأولى، وإلا لما استتب أمر السلطة للمستبد ولو كان عادلًا[26].

شكَّلت السنوات الأولى له في الحكم صوره الذهنية، وتصوراته العنيفة وفرضت عليه الأحادية، ووجهته لذلك التوجه النفسي الذي سلكه طيلة حكمه، ودفع البعض إلى الاعتقاد بأنه مجنون أو مختل عقليًا، لكَّن النص الروائي كشف عن توجهاته الفكرية، وكيف بنى استراتيجيته وأسبابها. موضحًا أن الاستبداد عليه وهو صبي وحرمانه من اللهو والحرية، أورثه الخوف من تكرار نموذج أبناء الإخشيد فاعتنق الاستبداد البطش حفاظًا على نفسه وأسرته " لا راحة لخليفة إن لم يتوجس من الكل، ولم يضرب ظله بالسيف، إذا بدا غريبًا أو ملتبسًا[27].

ثالثا / الدوغمائية وصناعة القداسة :

تعد هذه الرواية التاريخية محاولة لإعادة قراءة التاريخ مرتبطًا بالحاضر، بوصفه جزءًا لا يتجزأ منه، فلولا أحداث الماضي ما صرنا في تلك الوضعية الحضارية" إن الرواية العربية التاريخية الراصدة لافتراض النموذج المتمحور " حول البعد الحضاري" أو تلك التي تفكر في الوجود بأفق متخيل تاريخي أو اجتماعي " أو المبأرة على السيرة" لا تعتمد إعادة سرد الحدث التاريخي، لأن ما يهمنا يتمثل في تشخيص العلاقة الإنسانية ومنحها قدرة فهم الواقع التاريخي، الماضي والحاضر[28] فهذه الرواية تعد استنطاقًا لسيرة الحاكم بأمر الله، وتأويلا لأفعاله، والبحث في ذاته النفسية العميقة، لرصد كل ما ترسَّخ في وجدان الحاكم، وبنى عليه رؤيته الفلسفية للحكم والقداسة. فلقد ارتأى الحاكم أنه لا سبيل للحكم وامتلاك زمام الأمور إلا عبر خلق القداسة لذاته، ولم تكن تلك الرؤية ببعيدة عن أجداده، بل كانت حاضرة لديهم ومسيِّرة لهم ولحكمهم، ومن رحمها قامت الخلافة الفاطمية، لكنها لم تصل حد القداسة الإلهية، التي رسمها الحاكم لنفسه؛ فخالف نواميس الكون، إن كل ممارساته كانت نابعة من صناعة " ذاته المقدسة" وعنَّ للحاكم أن يدعي

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 141 - 168
البريد الالكتروني:
hany.ismail@art.bsu.edu.eg

الربوبية وقرَّب رجلًا يُعرف بالأخرم، ساعده على ذلك، وضم إليه طائفة بسطهم للأفعال الخارجة عن الديانة ... وشاع الحديث في دعواه الربوبية، وتقرَّب إليه جماعة من الجُهَّال، فكانوا إذا لقوه قالوا: السلام عليك يا واحد يا محيي يا مميت" ابن الصابي كتاب تاريخ، تكملة تاريخ ثابت بن سنان[29].

كان الحاكم في قراءة فلسفية لحكمه ولمجتمعه خرج منها بمعتقد مهم بناه على الرؤية المقدسة، التي قامت عليها دولته الفاطمية، فالقداسة هي التي هيأت له الوجود، لكنَّها كانت قداسة منقوصة سعى في تمامها، اكتفت بالنسب المقدس لآل البيت النبوي، هذه القداسة وإن خلقت لهم الوجود، لكنَّها من وجهة نظره غير قادرة بقاء الدولة واستمراريتها، في واقع يرفضها، ويعاديها؛ لذلك انحاز لخلق قداسة جديدة، قائمة على اعتقاد يتيح له الاستبداد والقهر والتعالي فوق البشر، " من ألهني منك ووافقه التوفيق خلعت عليه خلعًا سنية، وحملته على فرس مسرج في موكبي، وباركته في السر ورحبت[30] أقرَّ الحاكم دستوره الربوبي، بوصفه الوحيد المعطي المذل، لذلك كان من الطبيعي أن يمارس الحاكم سلطاته الجديدة من منظور الدعوة لعبادته، لكنَّه وقبل أن يقدم نفسه للرعية مذلًا مانعًا أو مانحًا معزًا، تعيَّن عليه أن يشرح لدعاته فلسفته الربوبية " لكم أبغي يا دعاتي أن أحلِّق كإله فوق تفاصيل حياة الناس وأعلو على صغائرهم، لكنَّهم تكاثروا وتفاسدوا وأعاقوا جموحي، ولوثوا فضاء اعتزالي وشموخي. وإني اليوم بهم لثقيل ، أغوص في أرض حولوا أديمها إلى مستنقعات دبقة، وجاذبيتها إلى قضبان من حديد[31].

إن لغة الرواية وعباراتها وأساليبها تؤكد أننا لسنا أمام " رواية تاريخية بالمعنى الذي قصده والتر سكوت أو الكسندر دوما، إنها رواية عن عصرنا هذا اتخذت ثوب التاريخ[32] لتحكي لنا عن واقعنا الذي صنعه تاريخنا القديم، فنحن مازلنا نحيا بدوغمائية القداسة التي صنعها الحاكم بأمر الله وأمثاله. يتتبع الخطاب الروائي ممارسات الحاكم التي لابد وأن تؤكد للناس ربوبيته، ولا يمكن أن ترسخ هذه المعتقدات إلا ممارسات أكثر غرابة وشذوذًا من ادعاء الربوبية أو تؤكد وتلح عليها، ومن دلائل إثبات الربوبية معرفة الغيب، لذلك فالحاكم سعى في بث عيونه لمعرفة أخبار الخاصة والعامة، حتى يفاجئهم بها؛ فيثبت دعواه " إني لأفعالكم ونواياكم بالمرصاد، ألتقط بالتجسس والسهر أسوأها وأعتمها، وأمحقها محقًا[33] تتلاقى الفلسفات الدوغمائية التي لا تصنع إلا ذاتها

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 141 - 168
البريد الالكتروني:
hany.ismail@art.bsu.edu.eg

وفكرها، ولا تعترف إلا بنفسها، وترى كل ما عداه باطلًا يستحق الفناء، فالعيون تترصد الرعية؛ كي تتخلص من البنية المعتمة / المعارض الرافض لدعاوى الربوبية. إننا أمام تاريخ يُستعاد عبر النص الروائي لا بنية الإخبار عن الماضي، إنما بهدف الكشف عن واقع تاريخي، مستقبل يُغلَّف بالتراث المقدس. كل أوامر الحاكم تعبر عن الصفة الإلهية للحاكم، التي تعلو فوق الجميع؛ لذلك عطَّل فريضة الحج " ومنع الناس من الحج عبر البر والبحر[34] وعلى الرعية أن تمتثل لأوامره دون نقاش أو جدال، لأن كل أوامره من وحي ربوبي خطه الحاكم نفسه، ووجد من يُروِّج له، وكلما امتثلت الرعية فاجأهم بأمر جديد " وفيها امتثل الصيادون أمام الحاكم، وأدوا القسم علي هجر صيد السمك الذي لا قشر له، وعلموا أن من حنث منهم وخالف شق بطنه، وأتلف ما فيه(35) إن عقاب الله مؤجل، لكن الرب الجديد عقابه حاضر غير مؤجل، حتى يرتدع الناس، ويلتزموا ويكفوا عن الفساد، الذي يؤذي الرب. فهذا الرب / الحاكم يأبي الاستقرار، وينفر منه، إنه يحب التغير والتقلب، ويبقى هو وحده الذي لا يتغير، فمراسيمه تعبر عن ثباته، وتغير الحال من حوله، فيعاقب الكلاب لأنه؛ لا يطيق " رؤية أحط الحيوانات، منزلة وأبعدها عن أخلاق التقلب والضد، وأكثرها تحملًا لأعباء التزلف والوفاء[36].

ينزعج الرب من أفعال البشر وفسادهم الذي زاد، وتآمرهم الذي استشرى، وكل تآمر لا يحاك إلا بليل، لذلك فالليل أمسى خطرًا يؤرق ذهن الحاكم ووحيه وتأملاته، فقرر" في السنة السادسة من قرن الحاكم ... طلع الخليفة بسجل في قلب المواقيت، ومنع التجول، ومن نصه: تجنبًا لما يأتي به الظلام من هواجس وأحلام مزعجة، ورفعًا لكل غطاء عن كل متربص بالسلطة متأمر عليها وعلي[37] يعتمد الخطاب الروائي توسيع دائرة التخييل وتنويع دلالته ورؤيته، وخلق ثيمات مبتكرة تساعد على انفتاح السرد الروائي على عدة خطابات، لا تتوقف عند الحدث التاريخي فحسب، بل ترتبط بالواقع الاجتماعي والاقتصادي والديني والسياسي في عصرنا الحديث، فالخطاب الروائي يسعى لاستنطاق الحاضر المتجذر بالدوغمائية السلطوية، ويبصِّره بتاريخه المقدس، الذي أسس لمعاناته الحالية، محاولًا دفع الوعي الحضاري؛ لإثبات ذاته والخلاص من عباءة القداسة البشرية والماضوية التي لا تجرَّ عليه غير ويلات البؤس، وتلزمه الصمت في امتهان وجوده. تسعى الرواية لإنتاج سرود تاريخية / واقعية نابضة بالحياة الحضارية.

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 141 - 168
البريد الالكتروني:
hany.ismail@art.bsu.edu.eg

صنع الحاكم قدسيته ومن قبله أسلافه الفاطميين من خلال تقديس الناس للماضي، بشرًا أو تاريخًا، فبرر لكل ظلم أو قهر أو هزيمة على أنها مخالفة لتراث الأجداد، ومناهضة للمشيئة الإلهية، فكانت مبررات الحاكم لدمويته تتمحور حول فكرة أنه قدس الأقداس التي يستمدها من نسبه وشرفه وأصوله النبوية، التي صنعها هو وكل الساعيين للحكم والاستبداد، لكن الشذوذ الأكبر صنعه بادعاء الإلوهية. " إن سألتموني عن علة فعلتي تلك، وما شابهها، فاسألوا إلهكم لم هو على كل شيء قدير، وما الحكمة في تعذيبه للبهائم والأطفال، وإرهاقه للثكالى أو اختطافه للأرواح، أفواجًا وكُتلًا[38] تعكس عبارات الحاكم منطقه وغرابة تفكيره، ودوغمائيته السلطوية، التي حولها إلى جنوح وادعاء للربوبية أسس به لكل أفعاله الشاذة. فالرؤية الرئيسة للخطاب تتمحور حول السكوت على الظلم، الذي يدفع الظالم للمزيد من الممارسات التي تجاوز الشطط والفجور في استباحة الدماء والأعراض والأموال, إن الرؤية الفلسفية للرواية لا تتوقف أمام الماضي لترصده إنما تسقط الأقنعة عن الماضي والحاضر ومنتجاتهما القمعية.

رابعا / الدوغمائية " أحادية الفكر " ورفض الآخر:

من الطبيعي أن يتشدد الإنسان الدوغمائي ضد الآخر الديني؛ لأنه يعتنق الفكر الأحادي المتزمت، الذي لا يخضع للعقل ولا ينحاز للإنسانية، التي تتيح التعايش السلمي، والتنوع الفكري والديني والسياسي إلخ. فالإنسان الدوغمائي قد بنى معرفته على فكرة الأحادية والتفرد، فهو يمتلك مجموعة من الأفكار والتصورات، التي لا تقبل النقض أو النقاش، يؤمن بها، وينفذها دون تفكير أو اختبار؛ فتلك التصورات النفسية تحركه، وتدفعه للتقلب الوجداني، والتطرف فيه، فعاطفتا الحب والكراهية عنده تترجم في صور عدوانية، تتسم بالقسوة الشديدة، وهذا ما دفع شخصية الحاكم بأمر الله إلى الاتجاه لرفض الآخر الديني ووضعه قيد التشدد الدوغمائي، الذي يبرر به أفعاله ومراسيمه تجاه هذه المجموعات الدينية " وفي السنة الثالثة عشرة من ربع قرن الحاكم تملكت الخليفة غيرة عارمة على الإسلام، مصحوبة بكراهية ساحقة لأهل الكتاب والذمة[39]. تتوجه الدوغمائية الحاكمية إلى قمع أهل الأديان الأخرى من مسيحية ويهودية، دون مبرر واضح سوى الغيرة على الإسلام، ذلك الإسلام الذي سعى من قبل في سحق رجاله وعلمائه، من أجل تدعيم فكرة ربوبيته، إننا أمام نموذج نفسي دوغمائي يبحر وفق تصورات نفسية قديمة، كلما تحركت فيه رغبة أثارته، ودفعته إلى الانتقام ممن لم يصبه انتقامه من قبل، أو من تلك الفئات

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 141 - 168
البريد الالكتروني:
hany.ismail@art.bsu.edu.eg

التي كانت لها حظوة قديمة عند أسلافه الفاطميين، وتخيل أنهم تقاعسوا عن نصرته، في شدته وهو صبي. فلابد أن يذوق الجميع عقابه وعذابه، ولم لا أليس هو الرب المتسامي فوقهم، فلابد من إرهاب رعيته، حتى ينصاعوا له ويذعنوا لمراسيمه.

إن الإسلام الذي يغار عليه الحاكم ليس الإسلام الذي نعرفه، إنما الإسلام الذي يريده هو، أو يعتنقه ويهيئ له شططه الفكري والديني وأحاديته. " تسألونني عن الحكمة في أمري بهدم كنيسة القيامة التي ببيت المقدس، وكنائس أخرى، بمصر والشام ... لا ليس فقط لأن ضرب النواقيس كنباح الكلاب يُفسد عليَّ في قعر ديني وديارى مناجاتي مع ملكوت السماء[40] تنكشف الدوغمائية المضمرة وتتضح مبرراتها النفسية، التي تدفع الحاكم بأمر الله لتقمص شخصيات مختلفة وأقنعة متناقضة، كي يحقق هدفه في السيطرة والاستعلاء الربوبي، إن هذا النموذج في الحكم أصبح نموذجًا مثاليًا يستخدمه الكثير من الحكام المتمثلين لشخصيات التاريخ السلطوية، خاصة أولئك الساعين لتحقيق رؤيتهم الأحادية، وإثبات صحة منطقهم، لقد أصبح الحاكم في دوغمائيته نموذجًا وقدوة تراثية لحكام المسلمين في العصور التالية عليه. " باسم الردع والاتقاء، عليَّ بكنيسة القمامة بدءًا فليصر طولها وعرضها وسقفها أرضًا فلعل وعسى[41]تتحقق بغيته في إرهاب الرعية، والانصياع لدوغمائيته، والإيمان به، واعتناق دعوته للربوبية، لقد سلك الحاكم نسقًا فكريًا وسلطويًا غير عقلاني، لكنه من وجهة نظره، يحقق له رغبته في السيادة والربوبية، فكل أوامر الرب لا تبرر. " فيا معشر ملة التوحيد، إني في هذا العصر العصيب، لا أكتفي بما حرَّم عليكم من مناكحة اليهود والنصارى، وأكل ذبائحهم، إنما أقرر بالإضافة والتأكيد أن لا يساوي ولا تعايش بين الديانات، فإسلام أمتي إما أن يكون دين الختم والنسخ لما سواه، وعاداه أو لا يكون[42] تتجلى دوغمائية الحاكم في مرسومه الأحادي، الرافض للتعدد والتنوع الذي أوجده الله، فلادين سوى دينه الذي يعتنقه، ولا طاعة إلا له، إن الدوغمائية الفكرية توظف كل شيء في سبيل خدمة أغراضها في السيطرة والهيمنة، وكبح جماح الآخرين.

لا تزال الرواية تعبر عن الحاضر اجتماعيًا وسياسيًا ودينيًا، متخذة استلهام التاريخ أيقونة فنية ورمزية، للكشف عن الأنساق الثقافية المضمرة التي شكَّلت مخيلتنا الثقافية طيلة القرون السابقة، مخيلتنا الدوغمائية التي لا تقبل التنوع ولا التعدد الإثني والعرقي، والمذهبي، وتصر أن

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 141 - 168
البريد الالكتروني:
hany.ismail@art.bsu.edu.eg

تكون منفردة متسيِّدة ، وهذا ما أسهم في نشوء الاستبداد في بلداننا واستقراره، وتكوين شبكات أحادية تخدم مصالحه وتروج له. وتعد تلك الاستراتيجية هي التي مهَّدت الطريق للفاشية الدينية والوطنية التي اجتاحت العالم الإسلامي قديمًا وحديثًا.

خامسا / تمثيلات اللون الأسود والرؤية الدوغمائية:

اتسم المجتمع العربي القديم كغيره من المجتمعات القديمة، بالعنصرية والتعالي الحضاري " فالذات العربية في هذا السياق هي الفاتحة والمتسيِّدة والمرتحلة في الأفاق والعابرة لحدود الآخر شرقًا وغربًا، شمالًا وجنوبًا[43] وتسيَّدت الثقافة العربية العالم الوسيط، وصارت هي الأكثر رقيًا حضاريًا، وقوة ثقافية، وهيمنة عسكرية، لذلك تضخمت الذات العربية تضخمًا كبيرًا، وصارت تنظر للجميع نظرة دونية، واستعادت العقلية العربية بداوتها وجفافها الإنساني، وتمحورت العنصرية في عنفوان حول البشرة السوداء، هذا الآخر الذي اضطهدته الثقافة العربية وأكثرت من تمثيلاته القبيحة في تراثها التي اتسمت بالنمطية والتكرار " عن حيوانيَّته، وشهوانيَّته المفرطة، وامتدادها عموديًا باستحكامها طوال قرون مديدة، وأفقيًا في حقول معرفية متنوعة[44].

كانت هذه صورة النمطية لأصحاب البشرة السوداء في الثقافة العربية، وظلت هكذا إلى أن قامت الدولة الفاطمية بتمردها، فثارت على الصورة النمطية العربية لأصحاب البشرة السوداء، وغيَّرتها، منحتهم فرصة لممارسة الحياة بشكل جديد؛ فاعتمدوا عليهم اعتمادًا كليًا – خاصة الحاكم بأمر الله – في القيام بمهام عديدة وجسيمة، ومن أبرز هؤلاء كان الخادم برجوان الوصي على العرش، ومدبر أمور الدولة، فكان اعتماد الحاكم على هؤلاء الرجال اعتمادًا ذكيًا، لأنه لم يغب عنه حالة العداء النفسي الشديد بين أصحاب البشرة السوداء والعرب، فكان توظيفه لهم في محاسبة الرعية ومراقبتهم ذات أبعاد نفسية عميقة، لقد سعي لكسر عزيمة الرعية العرب؛ فوضع من كانوا يظنون دونيتهم في مراتب الرياسة والقيادة عليهم.

يلعب الاستهلال الخبري السردي دورًا مهمًا في التمهيد للحدث الروائي أو إحداث التفاعل النفسي معه، ومحاولة مسايرة أفق التوقع، فالسردية الناجعة، وظفها الخطاب الروائي؛ لينتج عملية التخييل الخبري المرتبط بفاعلية المتلقي " وقد كان يعمل الحسبة بنفسه؛ فكان يدور في

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 141 - 168
البريد الالكتروني:
hany.ismail@art.bsu.edu.eg

الأسواق على حمار له – وكان لا يركب إلا حمارًا فمن وجده قد غشَّ في معيشة أمر عبدًا أسودًا معه يقال له مسعود أن يفعل الفاحشة العظمى، وهذا أمر ملعون لم يسبق إليه. ابن كثير: البداية والنهاية[45] اختار الحاكم مسعود العبد الأسود للتنكيل بالرعية عن قصد نفسي، لضبط حاضرته، وتنفيذ القانون؛ لذلك انتشر الرعب بين الجميع، وكُسر استعلاؤهم النفسي، عبر اغتصابهم الجسدي من قبل الفحل الأسود صاحب الفحولة الجنسية الوفيرة وفق المعتقد الشعبي العربي" أما ما اكتشفوه وأزال دهشتهم مما شاهدوه فيتمثل في شكل وحجم ذكر العبد مسعود، الذي أجمع الجند أنهم ما رأوا نظيره من قبل أو سمعوا عن مثيله؛ فتنافسوا في التعجب وإطلاق الأوصاف والنعوت التي كان مؤداها إلحاق مسعود بفصائل الوحوش الضارية، ثم تم تغيبه ورا ضخامة عضوه الذكري[46] ركَّزت المخيلة الثقافية على العضو الذكري للعبد، بشكل يؤكد هيمنة الفكر الجنسي على تلك المخيلة، حتى تم تغييب اسمه خلف ضخامة عضوه الذكري، " إن الروائي لا يكتفي بما كان من واقع الأحداث بل يعمد إلى إضافة معطيات جديدة، تعد مصدر انزياح النص اللاحق في السابق ... فتتوالى في الرواية كل سلبيات – التاريخ والماضي – من استبداد وجور وقمع، فيقابل الروائي بين تلك الأزمنة والحاضر، فيجد الماضي مستمرًا في الحاضر بالمظاهر نفسها، مما أدى إلى اختلاط ملحوظ بين أزمنة الماضي والحاضر[47] بكل تداعياتها وإنتاجاتها السلبية، إن سالم حميش يحيلنا للماضي القمعي الذي نعيش بداخله، ونرفض الانعتاق منه؛ إن مؤسسات القمع التراثية هي التي تعمل حتى تاريخ كتابته للرواية. رغم فداحة ولا إنسانية ما فعله الحاكم بأمر الله تجاه المخالفين لقوانينه المتعدين على حقوق الرعية في السوق، ورغم رفض الخطاب الروائي له، فإنه يقرر وجود ما هو أكثر لا إنسانية من هذا الفعل في العصر الحديث، عصر التماوجات والتغييرات الكبرى على كافة الأصعدة.

لقد اختزلت الثقافة العربية الفاطمية في مصر الإنسان مسعود / العبد الأسود في عضوه الذكوري، وصار مثار التساؤلات والانبهار، الذي هيأه ليكون مطلوب الحاكم ومبتغاه في تنفيذ ما يريد. ولعب الخيال بعقول الرجال من العرب، وتمنوا لو كان لهم آلة مثل آلته، تلك الآلة التي حققت لصاحبها الحظوة عند الحاكم، وتطلعات الأنثى. إن الخطاب الروائي يكشف عن النسق الثقافي المضمر، الذي نعيشه نفسيًا ونأباه ظاهريًا، تحت دعاوى كثيرة، أبرزها، الخلق والإيمان والتدين، الذي نكسره كلما تعارض مع مصالحنا ونرجسيتنا الدوغمائية. " ولم تمض ساعات على

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 141 - 168
البريد الالكتروني:
hany.ismail@art.bsu.edu.eg

إقامته في المستودع حتى شاع خبره في مصر، والقاهرة وكل الضواحي، وأصبح الكلام عن آلته الجنسية ينتشر في المحافل الشعبية[48] ذاع خبر الآلة الجنسية للعبد مسعود ، ولم يذع خبر مسعود ذاته، وكأن الحاكم قصد أن يمهد لما يريد فعله مع الرعية، بهذا الذيوع، ليكون الوقع عليهم شديدًا عندما يعلمون بمهمة العبد مسعود، أو بمهمة آلة العبد مسعود لو أردنا الدقة، فالدوغمائية الحاكمية تبشر بالنوائب التي ستلقى عبر مراسيم على الرعية، فهنا أثار الحاكم بشائعاته عن آلة العبد مسعود، شهية الأحاديث الشعبية التي تبالغ في كل شيء، فيتضخم الحدث، ويبرز الحقد والحسد على العبد، الذي يمتلك تلك الآلة المهمة، وفي اللحظة الحاسمة ومع تداخل المشاعر يعلن الحاكم عمَّا يهدف إليه، وهنا تنهار الروح المعنوية للرعية خاصة التجار، وينتشر الذعر والخوف بينهم؛ فيكون التأثير فيهم يسيرًا وتقبلهم للأمر أكثر سهولة.

وقبل إصدار المراسيم، ومع انتشار الشائعات يتقدم دعاة الأخلاق والصلاح إلى الحاكم يشيرون عليه " إما بقتله وإما بخصيه حتى نتخلص من أحاديث الناس[49].

نجح الحاكم في استراتيجيته التي حظيت باهتمام الجميع، فانطلق يمارس شذوذه النفسي وشططه الفكري، " وقرر والليل يعلك سواده أن يُدخل العبد مسعود في خدمته ويكلفه بمهمة خاصة[50]، كانت المهمة الخاصة التي قصدها الحاكم تعكس التوجه الإداري العام داخل بلاطه، الذي اعتمد على العبيد في تسيير أموره، لكن هذه المهمة الخاصة كانت ترتبط بمحاولات الحاكم تحطيم الثقافة العربية والاعتداء عليها، وكسر استعلائها عليه، أو النيل والقدح في نسبه، إن الدوغمائية السياسية والدينية عند الحاكم كانت على وعي تام بالأنساق الثقافية العربية، تلك الأنساق التي تستعلي على الجميع ، وتحتقر البشرة السوداء؛ لذلك قصد توظيف العبد للانتقام منهم؛ لأنها الوسيلة الأكثر تأثيرًا والأشد وطأة على نفوسهم. أكَّد الخطاب الروائي على رغبة الحاكم في إحكام قبضته على دولته وعلى كل من يقيم فيها، وأولهم أولئك الذين يقدحون في نسبه ويتعالون؛ حتى يكسر شوكتهم، ويضمن إحكام سيطرته عليهم، وفرض قوته، واستتباب الأمن في البلاد، والتحكم في التجارة والتجار، قصد الحاكم بما فعل عدة مقاصد إدارية ونفسية، كانت تهدف جميعها تأكيد أحاديته الفكرية؛ فكان يقصد الخير بوسائل ضد الإنسانية.

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 141 - 168
البريد الالكتروني:
hany.ismail@art.bsu.edu.eg

يؤمن الحاكم بأن كل أفعاله وأوامره ونواهيه تصب في مصلحة الرعية، بوصفه كائنًا ربوبيًا، فكان خرقه لنواميس الكون، أو هدمه للقيم الدينية والأخلاقية أو دمويته المفرطة، وقهره للأنفس – من وجهة نظره – حكمة ربوبية صنعها لمصلحة البشرية؛ فالمنادون يجوبون كل الميادين والضواحي يعلنون عن حكمته، وحكمة قراراته، ويبشِّرون بمهمة العبد مسعود" يا عباد الله، إن مولانا ومولاكم يذكركم بأن بلاده لا مكان فيها ولا هواء لأي محتكر للسلع، أو لأي تاجر يغش ولا يأتي الكيل بالميزان، وإذا ما عاث عابث في الأسواق والأقوات فسادًا ، سلَّط عليه مولانا العبد مسعودًا، ليفعل به على مرأى الناس الفاحشة اللوطية العظمى[51].

يبرز النص ثنائية الحق والباطل في نفس الحاكم، وكيف أنه كان يسعى لإحقاق الحق، والقضاء على الغش والسرقة، ودحر الباطل من خلال قهر رعيته نفسيًا وماديًا، كما أنه عبر ثنائية الحق والباطل المؤمن بها؛ يستنهض نوازع الحقد داخل العبد مسعود؛ لينتقم من المجتمع الذي نبذه، وحرمه من الحياة الكريمة، واعتدى عليه، إن الحاكم يجيد بعث النوازع النفسية العميقة لخدمة مصالحه، وهذا ما فعله مع الخادم مسعودفي معاقبة المحتكرين للسلع المطففين للكيل والميزان " لديه وعي جاد بأن السماء قد وهبته فرصة – هي فرصة العمر كله – لكي ينتقم لنفسه من مجتمع برمته، أنزل به الهوان وعذابًا لا يطاق، فصار في رحاب المدينة وأسواق القصبة كلها يمشي وأمارات العنجهية والخيلاء، تسبقه؛ فيتجشأ على من أراد؛ ويضرب القفا التي لا تعجبه[52] حوَّل الحاكم نوازع الانتقام في نفس العبد مسعود؛ فتماهى مع انحراف سيده، حتى انحرف انحرافًا انتقاميًا، سعى فيه لتحقيق ذاته، والثأر لها من المجتمع الظالم. لكنَّه لم ينتقم لنفسه، بل كان يقهر نفسه لأنه كان أداة في يد الظلم الذي سينقلب عليه يوما ما.

كما أراد الحاكم إيقاع المجتمع المصري في اللغط والانقسام والبلبلة؛ حتى يستطيع صرفهم بالحيلة بعد أن عجزت القوة والبطش والتنكيل والقتل، عن إيقاف سخريتهم منه، والقدح في نسبه " نزل إنذار الحاكم على تجار مصر والقاهرة كالصاعقة المظلمة، وعلى الناس ومعوزيهم خاصة خبرًا سارًا ومنصفًا، فصار المنتصرون من هؤلاء يتربصون بالمحتكرين والغشاشين ويفضحون كل من تمادى في الغش والتزييف ولم يرعو[53] استطاع أن يحقق عبر انحرافه الفكري والإنساني مآربه المختلفة في إدارة الدولة، فاستطاع أن يسود فوق الجميع، بعد أن نجح في إحداث البلبلة والشقاق

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 141 - 168
البريد الالكتروني:
hany.ismail@art.bsu.edu.eg

بين الرعية عبر استعماله للعبد في الاعتداء الجنسي على التجار المحتكرين، كما استطاع أن يرفع قيمة البشرة السوداء فوقهم، وإثبات قدرته على النيل منهم ومن كبريائهم. وأثبت لهم أنه القادر على فعل كل شيء من خلال تلك الممارسات الشاذة والغريبة.

نال الحاكم بأمر الله من الجميع عبر توظيفه للعبد مسعود، كي يلوط بكل من يخالف أوامره، لكنَّه لم يكن يتوقع أن العصيان الأكبر سيجيئه من العبد الضعيف، الذي أعاده للوجود، وأطعمه وهيأ له مقامًا مميزًا، لقد كان العبد وسيلة ثنائية للإذلال وكسر التعالي والهيمنة، فاستعمله الحاكم لذلك، لكنَّ إنسانيته دفعته لعصيانه، ورفض الانحراف الإنساني " لقد خالج مسعود شعور غريب بالذنب ووخز الضمير، لكثرة ما علق بذاكرته السمعية والبصرية، من أشكال المؤخرات والأستاه، وأنواع التوجع والتضرع والصراخ[54] فانهارت قواه بعد أن هاجمته الأحلام، وطاردته الآلام والأوجاع، انهزمت اللاإنسانية داخله، فعصى أوامر سيده، وتمنى الموت وتحمل كل صنوف العقاب، ومن يومها وهو ينام قرير العين.

إن النص الروائي يحمل رسالة لكل الطغاة تؤكد أن الطغيان مهما علا وتجبر فإنه لا محالة إلى زوال، وأن حسن السياسة والعدل والمساواة هو الطريق الأمثل لإدارة الدول والرعية.

سادسا / الثورة والدوغمائية البديلة:

استهل الخطاب الروائي حديثه عن الثورة ضد دوغمائية الحاكم بأمر الله بخبر تاريخي قصد من خلاله بناء التخييل بالخبر الذي وضعه في بنية فنية تسهم في فاعلية النص الروائي، كان هذا الخبر الاستهلالي يهدف إلى إبراز حالة الخوف التي انتابت الحاكم بأمر الله جراء هذه الثورة، التي كانت بديلًا دوغمائيًا لدوغمائيته، التي بالغت في الانحراف والشطط "...وأقام أبو ركوة " ببرقة وترددت سراياه إلى الصعيد وأرض مصر. وقام الحاكم من ذلك وقعد. وسقط في يده، وندم على ما فرط، وفرح جند مصر وأعيانها، وعلم الحاكم ذلك فاشتد قلقه، وأظهر الاعتذار عن الذي فعله. وكتب الناس إلى أبى ركوة يستدعونه، وقد كتب إليه الحسين بن جوهر المعروف بقائد القواد، فسار عن برقة إلى الصعيد، وعلم الحاكم فاشتد خوفه وبلغ الأمر به كل مبلغ...." ابن الأثير، الكامل في التاريخ [55].

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 141 - 168
البريد الالكتروني:
hany.ismail@art.bsu.edu.eg

إن هذا الاستهلال يكشف خوف الحاكم من ضياع ملكه وملك أبائه الذى استطاع أن يعضده بدوغمائية أفرط فيها؛ حتى كرهه الجميع (عامة- خاصة- جند) وهذا ما أزعجه ، فأعاد للناس بعض حقوقها، وخفف عنها بعض الضرائب والمراسيم الغريبة، لكنَّ الناس لم تقنع بهذا، ومالوا للثورة والثوار، يكشف الخطاب الروائي لنا عن خطورة الوضع بصفة عامة، ويسعى للتأكيد على أن الدوغمائية كانت منهجًا سائدًا في تلك الفترة، فالحاكم دوغمائى، وأبو ركوة وثورته دوغمائيتان ، وهذا ما حاول النص إبرازه والربط بينه وبين مستجدات العصر الحاضر المعاصر للرواية، تلك الفترة التي كانت تؤسس أو تمارس الفكر الأحادي /الدوغمائية السياسية والدينية.

❖ **الدوغمائية واندلاع الثورة:**

يعد البؤس والشقاء هما سبب اندلاع الثورات، فالبؤس والشقاء نتيجة من نتائج الاستبداد والقهر الذى يمارس ضد الشعوب، لهذا استهل السرد الروائي حديثه في ثورة أبى ركوة في وصف دقيق للبيئة التي نمت فيها الثورة وترعرعت "كانت بوادي برقة الصحراوية تحت حياة الضنك والخصاص على رقعة من الفسائط الرملية الفقيرة"[56] يبزر النص الحاضر والمستقبل أكثر مما يبرز أو يستلهم التاريخ ، إنه يسعى للكشف عن نتائج الاستبداد والقهر، والسعي لانتهاك حقوق البشر، ورفع الضرائب وإثقال الشعوب بالمراسيم الكثيرة التي يصدرها الحكام، كما كان يفعل الحاكم بأمر الله، إن النص يؤكد أن أسباب الثورة كلما توفرت في بيئة أنتجت الخراب والدمار للحاكم والمحكوم، لذا لابد من السعي إلى تحقيق العدالة والمساواة والابتعاد عن الانحراف والشطط " ويقاومون بيأس شديد ما يتناوب عليهم من زوابع الصحراء المتلفة، وندرة الأقوات، المفرطة، وما يكلل كل هذا من هجمات عساكر الفاطميين المدمرة" [57] جمع الخطاب السردي كل أسباب الثورة في عبارات موجزة دقيقة، تتلاقى في كثير أو قليل مع وضع البلدان العربية في زمن تأليف الرواية، فالنص تاريخ يؤسس لحاضر ومستقبل، ارتبط بقدسية واضحة في نفوس الشعوب، حتى صار التاريخ الملطخ بالدماء والجرائم جزءًا من عقيدة دوغمائية شخصية، حاول الخطاب أن يبينها أو يكشف سوء عاقبتها للجميع، لكنَّ الخطاب هنا لم يكن خطابًا مباشرًا إنما

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 141 - 168
البريد الالكتروني:
hany.ismail@art.bsu.edu.eg

اعتمد تقنيات الوصف والرصد والتصوير الدقيق للحدث، الذي يدفع المتلقي للتفاعل معه، ومن ثم تحدث حالة الكشف أو إزاحة أقنعة القداسة عن ذلك الماضي المؤسس للحاضر وربما المستقبل "ولا ينتهون من حرب إلا ليستعدوا للأخرى...فأينما ولوا وجوههم فثمة وجه للحرب"[58].

❖ **الخفاء:**

اتسم الحاكم بأمر الله ومن قبل دولته نشأةً وخلفاءَ بالخفاء والغموض، حتى صار هذا الأمر طابعًا مميزًا لهم، يحافظون عليه ويسعون لتحقيقه دوما، وقد كان الحاكم بأمر الله أكثر خلفاء الدولة الفاطمية خفاء واختفاء وغموضا وغرابة، صنعت من حوله حالة مهيبة، دفعت الجميع للخوف منه والاعتقاد فيه، وهذا الوضع هو الذى مكَّنه من صناعة الخوف والتأكيد على دوغمائيته المستبدة...هذا الخفاء هو الذى حدا بالخطاب الروائي؛ ليكشف عن ثورة "أبو ركوة" وطابعها الذى هو طابع يعبر عن سمة عصر بأكمله، وليس سلوكا فرديا. لذلك فكل صفات الثائر أبو ركوة تندرج تحت "الخفاء" "ذات يوم من شهر محرم خمس وتسعين وثلاثمائة ظهر على واحة بني قرة رجل غريب بهيئته المتصوفة [59] إن القص يؤكد أن الشخصية التي ظهرت في البادية غامضة ، غريبة، خفية الأصل ، ولعل هذه الصفات ذاتها تنطبق على عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية، الذى اختلف المؤرخون والناس حول أصوله ونسبه ولا يزال هذا الاختلاف، إن الخطاب يكشف عن تلك الحالة المهمة، التي طبعت تلك الفترة الزمنية في تاريخ الدولة الإسلامية "الخفاء" ، وكان كل ما هو خفى قويًا، مثيرًا، له سلطان على النفوس " ولما طالت حيرة، القبيلة حول ضيفها وأصله ومراده[60] طال السكوت وزاد الغموض والخفاء حول شخصية الوافد الذى لا ينطق إلا إشارة ورمزا[61] إننا أمام صورة أخرى للحاكم بأمر الله الذى ينطق بما لا يفهم، ويصدر مراسيم لا تعقل، فأبو ركوة لا ينطق إلا إشارةً أو رمزًا، صورة مغايرة للحاكم لكنها تتسم بالخفاء والغموض، بل إنها تقصد هذا لترسيخ معتقدها والنجاح في فرض سلطان القداسة حول شخصه، "كان الحاكم بأمر الله وأسرته لا يركبون إلا الحمار بدعوى أنه مطية الأنبياء والثائر أبو ركوة "لا يركب جملا إلا لعن الطغاة [62] كانت مطيته الجمل اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم. إننا أمام رؤية واحدة ومنطق واحد وهدف واحد لشخصيتين مختلفتين، أحدهما حاكم دوغمائى ، والثانى ثائر دوغمائى يؤمنان برؤية أحادية مفادها إنهما يمتلكان ما لم يمتلك غيرهما، ولهما قداسة تخصهما لذلك فلابد من طاعتهما، و كان الخفاء والغموض سمة لهما، فلا أحد يعرف عنهما، إلا ما

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 141 - 168
البريد الالكتروني:
hany.ismail@art.bsu.edu.eg

يريده هو أو ينطق به أو يخبر. إننا امام صورة حقيقية للحكام العرب في عصرنا الحالي، خاصة عصر تأليف الرواية، ذلك العصر الذي تميز بقدسية الحكام وعلوهم فوق الجميع خاصة شخصية الملك المغربي الحسن الثاني، وما تميز به من قدسية كبيرة لدى شعبه، جعلت منه شخصية قريبة من الحاكم بأمر الله.

❖ **قداسة الأصل وصناعة الضحية:**

قامت الدعوة الفاطمية من منطلق الحق في الحكم؛ نظرا لقداسة الأصل والنسب، والتعرض للإيذاء، مما اضطرهم للهجرة من وطنهم في الجزيرة العربية، حتى استقروا بالمغرب، ونجحوا في تأسيس دولتهم، ثم فتح مصر والاستقرار فيها، وبقيت القداسة أحد أهم الأسباب في استمرارهم في الحكم، والسبب الذى يستمدون منه شرعيتهم بالإضافة إلى كونهم ضحية للظلم والقهر، فهم دعاة الحق والعدل، كانت تلك هي حالة الفاطميين وعلى رأسهم الحاكم بأمر الله، تظلله القداسة والتضحية والإمامة، تلك الأمور التي أباحت له ارتكاب كل الانحرافات تجاه رعيته بعد استتباب الأمر له ولأسرته، إن تلك الصورة هي نفسها التي ارتبطت بثورة أبو ركوة داخل النص الروائي، والرجل من أصل قرشي شريف ينافس به أصل الفاطميين، وكأن الدولة الإسلامية كان لابد لها أن تنقسم بين هذين الأصلين، فهم أصحاب الحق في الحكم "أبشروا يا قوم: فالرجل بين ظهرانينا هبة من الله إلينا، لقبه أبو ركوة واسمه الوليد من ذرية هشام بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر سليل الدوحة الأموية"[(63)] يهمين نسق ثقافي سياسي ترسَّخ في الوجدان والمخيلة الإسلامية، وساعدته الظروف على الترسخ والايمان به، هذا النسق السياسي مبني على أن حكم الدولة الإسلامية، لابد أن يكون عربيًا قرشيًا، لكنَّ الصراع دبَّ بينهم، من أولى منهم بالحكم؟ هل الهاشميون بوصفهم آل بيت النبوة أم أبناء عمومتهم من الأمويين، وانقسم الفكر الإسلامي انقسامًا حادًا حول هذا الأمر، وتقاسم الطرفان عبر التاريخ الحكم والصراع؛ حتى أضرا بالدولة الإسلامية، وكانا سبب الانحراف الشديد في مسيرتها، وتعمقت الجراح، وامتلأت النفوس بالأحقاد نتيجة بئر الدماء التي أريقت بسبب هذا الأمر، فالخطاب الروائي يريد أن يكشف عن النسق الثقافي السياسي المضمر المعلن في التاريخ الإسلامي ، مؤكدًا أن كل أسباب التراجع الحضاري كان وراؤها أو أحد أهم أسبابها هذا الصراع الدموي ، الذى انتقل من الجزيرة العربية إلى العراق، الشام، الأندلس، بلاد المغرب ثم مصر والسودان.

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 141 - 168
البريد الالكتروني:
hany.ismail@art.bsu.edu.eg

لم ينتسب الهاشميون والأمويون للعالم الإسلامي كما هو الطبيعي، بل انتسب العالم الإسلامي لهما، فهذا هاشمي وهذا أموي، وظل الصراع دائرًا بينهم طيلة عمر الدولة الإسلامية، حتى أنهكا بعضهما بعض وتكالبت عليهم الأجناس الأخرى، وانفلت السلطان من بين أيدى العرب إلى بعض الأجناس الذين ورثوا دولة منقسمة ثقافيًا وفكريًا ودينيًا؛ حتى وصلنا إلى عصرنا الحالي، الذى ورث كل انقسام الماضي، وبالغ فيه حتى لم يعد لنا وجود حقيقي سوى أتباع مقهورين داخليًا وخارجيًا، إن الرواية التاريخية تتناسل فكريًا وثقافيًا؛ لتنتج لنا حاضرنا، مؤكدة أننا نتاج الماضي الذى ما زلنا نحيا في عباءته إلى الآن.

صار الكل هاشميًا أو أمويًا، وصار الكل ضحية للحروب والانقسامات، وصارت فكرة الضحية بجانب القداسة هي مفتاح الحكم أو بوابة العبور له، فكما روَّج الفاطميون لتضحيتهم "آل البيت" روج أبو ركوة الثائر لفكرة الاضطهاد الذي مورس ضده، حتى يضمن التعاطف الشعبي معه" وسبب خروجه من الأندلس أن الحاكم الطاغية المنصور بن أبى عامر بعد أن حجر على خلف الحكم الثاني الصبي المؤيد هشام ونكح أمه ُصبح قام بأعمال السيف في أعضاء الأسرة الحاكمة بقرطبة فمنهم من قُتل ومنهم من لاذ بالفرار، وكان ضيفنا المبجل أبو ركوة ، وهو في العشرين من عمره، من بين هؤلاء الناجين.(64)

لقد أصبحت فكرة التضحية والهجرة نسقًا ثقافيًا سياسيًا مهما، ترسَّخ في وجدان الأمة، وأضحى هو مفتاح القبول لأى مطالب بالحكم، وكفيل لالتفاف الناس حوله، فالنسق الثقافي أصبح جزءًا من الوجدان الجمعي للأمة، فهم يبادرون تلقائيًا بالوقوف خلف الضحية ماديًا ومعنويًا، لذلك وجد "آل البيت" "وأبو ركوة الأموي" ذلك الالتفاف والتعاطف في تلبية دعوتهم، وصار هذا النسق الثقافي هو الجسر الذى يعبر عليه كل مغامر طالب للحكم.

❖ **ادعاء العلم:**

من البديهي أن يكون آل البيت علماء وعلى دراية تامة بالدين والدنيا، وكان الفاطميون على وعى بهذا النسق المترسخ في المخيلة الإسلامية ، فعملوا على تأكيده وتوظيفه لمصلحتهم، وكان الحاكم من أبرز هؤلاء الخلفاء الذين عقدوا مجالس للعلم والفكر، وادعاءً لهما، ونظرًا لأن هذا الأمر كان نسقًا ثقافيًا مترسخًا في الوجدان الإسلامي، كان لابد لأبو ركوة الثائر أن يكون عالمًا

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 141 - 168
البريد الالكتروني:
hany.ismail@art.bsu.edu.eg

حافظًا للدين، يعقد مجالس العلم ويعلم الدين ولم لا أليس عربيًا قرشيًا أمويًا " وقد قضى في أسفاره عقدًا بين مصر والشام واليمن ومكة يطلب العلم، ويُعلِّم الصبيان قول الله ونبيه عليه السلام(65). يمثل أبو ركوة صورة للحاكم بأمر الله منافسة له في الحكم والاضطهاد والعلم ، وتعد كل هذه الأمور مبررًا للثورة عليه، وانتزاع الحكم منه بوصفه الأحق من وجهة نظر المريدين والأتباع "فبشرى لنا بمقدمه إلينا من أرض الكنانة بعد أن طرده منها حاكمها...والقوم في حالة من الذهول والخشوع عظيمة(66) حققت عناصر الخفاء والقداسة والتضحية وادعاء العلم ثمارها، فهو نسق سياسي ثقافي شعبي، ترسَّخ بداخلهم، ووجد دوما من ذكاه " قال أبو ركوة كلمته الأخيرة ثم استلقى على الأرض متعبًا والحاضرون مشدوهون كأنهم استمعوا إلى حديث انتظروه منذ أمد بعيد وكأن جل لآلئه كانت مضمرة في شعورهم الخفي وفى باطن ذاكرتهم وكيانهم، فلا تطلب إلا من يخلصها ويرصع بها وعيهم القائم"(67).

إنه النسق الثقافي السياسي المضمر، الذى تحن إليه النفوس العربية الإسلامية، وتنتظره بوصفه المخلص لهم من حياتهم البائسة، لكنهم دوما ينخدعون في هذا المخلِّص الذى يعبر دوما عن نسقهم المضمر، ويعيده للوعى،كى يحقق مأربه ثم ينقلب عليهم منكلًا، ومستأثرًا بالسلطة والخير، فعلها الفاطميون وغيرهم عبر التاريخ الطويل للدولة، وفعلها الثوار الكثر، فمنهم من نجح في الوصول إلى الحكم، ثم انقلب عدوًا لشعبه، ومنهم من فشل في إدراكه وانتهى إلى الموت والتنكيل كما حدث مع أبى ركوة، فالخطاب الروائي يبرز أساليب الخداع التي يوظفها كل طلاب الحكم، مستغلين ما تحقق في مخيلة الأمة ووجدانها؛ حتى صار نسقًا ثقافيًا سياسيًا مأمولًا يهيج مع من يحركه، فينخدعون ويقعون فريسة في كل مرة ويعانون، لقد صار هذا النسق سبب الأزمة الكبرى للأمة قديمًا وحديثًا، إننا كما يكشف الخطاب الروائي أمة لم تنعتق بعد من ماضيها المؤلم، تعيش فيه وتقدسه رغم كونه سببًا رئيسًا في نكبتها الحضارية الحديثة.

الخاتمة :

عالج هذا البحث الرواية الجديدة وتناولها للحدث التاريخي من منظورها الخاص، عبر رؤية فلسفية، تسعى لتأكيد وشائج العلاقة بين التاريخ والحاضر الذي نعيشه، هذه الرؤية التي انبثقت أساسًا من الصراع حول الانفتاح والانغلاق الفكري، حول الأخذ بأسباب الحضارة

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 141 - 168
البريد الالكتروني:
hany.ismail@art.bsu.edu.eg

الحديثة، وبين التمسك بالقديم وتقديسه، هذا التقديس الذي أوجد تلك المعضلة الحضارة الكبرى للأمة العربية، ممثلة في الاستبداد والتأخر الحضاري.

عرض هذا البحث للصراع بين الماضي والحاضر معتمدًا على الرؤية الفلسفية، التي تبنَّتها الرواية وناقشتها بوصفها معضلة وجودية عربية، تمس المجتمع وسِلمه الاجتماعي والنفسي.

وأظهر هذا البحث دور الرواية التاريخية في مناقشتها للقضايا الفكرية المهمة المتعلقة بالمجتمع العربي. وأكد البحث أن تلك الرواية كانت تعبر عن الحاضر أكثر من تعبيرها عن الماضي، فالتاريخ وسيلة لغاية مهمة هي مناقشة الأفكار والأوضاع الحضارية الحالية، وأسباب التأخر الحضاري، والانغلاق الذي تعمَّق داخل مجتمعاتنا العربية الحديث، وعجزها عن مواكبة التقدم الحضاري، وتبنيها للدوغمائية بكل أنواعها: دينية، سياسية، اجتماعية، فكرية.

كما أكَّد البحث دور التخييل الإخباري في إنتاج دلالات عميقة، تثري العمل الروائي، وتدفع المتلقي للتفاعل معه، فكان الاستهلال جزءًا أصيلًا، ونصًا موازيًا ذا قيمة سردية مهمة.

لقد وقف البحث أمام إنتاجات القهر النفسية التي تصيب الإنسان بالأمراض النفسية والسلوكيات الدونية، وهذا الذي أسس للرؤية الأحادية الدوغمائية عند الحاكم بأمر الله، ودفعته للشطط الفكري والانحراف.

الاحالات و الهوامش :

1 - هاشم صالح: بين مفهوم الأرثوذكسية والعقلية الدوغمائية، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء، لبنان، عدد 43 1987 : ص87

2 - سليمان النصير الاستهلال فن البدايات في النص: منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق 2003 م: ص 22

3 - . ناهضة ستار بنية السرد في القصص الصوفي المكونات، الوظائف، التقنيات منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق 2003 ص 87

4 - عبد الحق بلعابد: عتبات جيرار جينيت من النص إلى المناص، الدار العربية ناشرون، الجزائر، الطبعة الأولى2008 م: ص 122 : 123

5 - سالم حميش: مجنون الحكم، آفاق الكتابة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 1998م: ص 11

6 - المرجع السابق: ص 10

7 - السابق: ص10

8 - عبد الحق بعابد: عتبات جيرار جينيت من النص إلى المناص: ص 123

9 - السابق: ص11

10- هاشم صالح: بين مفهوم الأرثوذكسية والعقلية الدوغمائية: ص 87

11 - محمد خليل عباس، سامي محمد ملحم: القدرة التنبؤية لكل من العدائية والغضب والاكتئاب في سمة التشدد في الرأي (الدوجماتية) لدى عينة منالمراهقين في الاردن وعلاقته بتقدير الذات لديهم، دراسات العلوم التربوية، م42، ع 1 2015م : ص 199

12 - سالم حميش: مجنون الحكم: ص 222

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 141 - 168
البريد الالكتروني:
hany.ismail@art.bsu.edu.eg

13- المرجع السابق: ص 223

14 - السابق: ص 223

15 - السابق: ص 223

16 - السابق: ص 223

17 - السابق: ص 223

18- السابق: ص 18

19 - السابق: ص 18

20 - السابق: ص 18

21 - السابق ص 18

22 - السابق: ص 18

23 - السابق : ص 19

24 - السابق: ص 19

25 - السابق: ص 19

26 - السابق : ص 20

27 - السابق: ص 20

28 - عبد الفتاح الحجمري: هل لدينا رواية تاريخية: فصول ع 3 يوليو 1997 ص 66

29 - سالم حميش: مجنون الحكم : ص 97

30 - المرجع السابق: ص 106

31 - السابق : ص 106

32 - فاطمة موسى: تعدد الأصوات داخل الرواية الحديثة، قراءة في روايتي أوراق، مجنون الحكم، المجلس الأعلى للثقافة، مصر 1998م : ص 293

33 - سالم حميش : مجنون الحكم: ص 23

34 - المرجع السابق: ص 32

35 - السابق: ص 32 : 33

36 - السابق: ص 33

37 - السابق: ص 34

38 - السابق: ص 24

39 - السابق: ص 41 : 42

40 - السابق : ص 42

41 - السابق: ص 43

42 - السابق: ص 43

43 - د. نادر كاظم: تمثيلات الآخر صورة السود في المتخيل العربي الوسيط: المؤسسة العربية للدراسات والنشر: ط1 2004م: ص 15

44 - المرجع السابق: ص 15

45 - سالم حميش: مجنون الحكم: ص 49

46 - المرجع السابق: ص 55

47 - منى بشلم: علاقة الرواية العربية بالتاريخ، مجلة الموقف الأدبي، العدد 493 أيار 2012م دمشق: ص 38

48 - سالم حميش: مجنون الحكم: ص 55

رت م د :0367 - 2353
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 141 - 168
البريد الالكتروني:
hany.ismail@art.bsu.edu.eg

49 - المرجع السابق : ص 56
50 - السابق : ص 56
51 - السابق : ص 57
52 - السابق : ص 58
53 - السابق : ص 56
54 - السابق : ص 61
55 - السابق : ص 111
56 - السابق : ص 113
57 - السابق : ص 113
58 - السابق : ص 113
59 - السابق : ص 114
60 - السابق : ص 113
61 - السابق : ص 113
62 - السابق : ص 113
63 - السابق : ص 114
64 - السابق : ص 114
65 - السابق : ص 114 : 115
66 - السابق : ص 115
67- السابق : ص 117